أسلوب السُّخرية في قصيدة : (تنويمة الجياع) ـ للجواهري

دراسة تحليلية،ودلالية

أ.م.د. الدكتور علي رحيم هادي الحلو*

مقدمة

قد تتكرر العبقرية، ولكن بعد طول انتظار، فانظر كم قرنًا بين المتنبي والجواهري ؟ وكم على الأمة أن تترقّب مولودا يثلثهما ؟

هكذا هي الأمم الحيّة ـ ولاسيّما عندما تتطلع في سماوات الشعر، ومراتب الإبداع الأدبي ـ تُعظّم حضارتها، وتعلي مكانة بناتها، وتُخلّد مبدعيها، وها نحن اليوم نقف عند شاعرٍ من مبدعي الحضارة .

لقد عاد المتنبي في الجواهري، شموخًا، وتمرّدًا، وحبًّا، وجزالة، وصورًا حيّةً ناطقة من الحياة، ورفضًا للظلم، وحربًا على الطغاة وتطلعًا إلى الغد المشرق .

رقد الجواهري في قبره، لكنه يعيش معنا كبرياءً وإباءً، وعنفوانًا طاغيًا، وحلاوةً في التعبير، وسلاسة ما بعدها سلاسة، فاستحق المجد كل المجد، إنّهُ الخلود الذي ما بعده خلود .

لقد نظم الجواهري في موضوعات شتّى، وأطال فيما نظم، فكان من أغزر الشعراء عطاءً . وقصائده على طولها تجدُها عرائسَ البلاغة العربية، فلا إسفاف، ولا نزول عن قمة الإبداع .

وأصبح الجواهري قِمةً للشعر، وسيبقى، ولا نغالي إذا قلنا: لم يولد شاعر بعد المتنبي إلا الجواهري، لأنه لا يسعه الكَلِم، ولا يحدُّه زمان، ولا مكان ؛ لأنه كما قال المرحوم الدكتور طه حسين : هذا شاعر العرب الأكبر، الآن بدأت استمع الشعر الشعر، ساعة إلقاء الجواهري قصيدته في الذكرى الألفية لوفاة المعري، حيث بلغ قوله :

لحرية الفكر تاريخٌ يحدثُنا بأنّ ألفَ مسيحٍ دونها صُلُبَا

وصدَق الدكتور المرحوم علي جواد الطاهر إذ وصفه بقوله : (الجواهري هو الجواهري، وكفى) [1] .

لقد قَلّبْتُ قصائدَ الجواهري لعلّي أختار لؤلؤة من بينها، فأعياني التمييز بين الدُّرر، وكلّ واحدةٍ منها تتباهى على أختها، فلا تَميزها، ووجدتُ منها ما ارتبط بمناسبة، ومنها ما ارتبط عفوا بما رآه الجواهري قضيةً، أو ليكون قضيّةً، أو موضوعًا لدى الشاعر .

---

* عميد كلية الشريعة الإسلامية /جامعة أهل البيت (ع)

(١) ملف أصدرته جامعة الموصل احتفاءً بالشاعر الجواهري في ١٩٨٠/٢/٢٠م .

http://abu.edu.iq

ولما كان البحث الأكاديمي يُلزمُنا أن نُحدّد موضوعًا، فقد وقع الاختيار على رائعة الشاعر (تنويمة الجياع). ولأجل الدقة في التحديد سأتناول أسلوب السخرية في هذه القصيدة، ومدى مساهمة الشاعر من خلال قصيدته هذه في إيصال أفكاره إلى المتلقي، وأثر ذلك فيه .

اشتمل البحث ـ بعد هذه المقدمة ـ على تمهيد بينت فيه أن الجواهري اتخذ الإنسانَ وهمومَه قضيتَه الأولى، ولاسيّما قضية المحرومين من شعبه، وتناولت مقدمتيه النثريتين اللّتين قدّم بهما لدواوينه .

وتلت التمهيد ثلاثة مباحث، عرض الأول منها جوانب عن الشاعر وقصيدته(تنويمة الجياع) . أما المبحث الثاني فعرض أسلوب القصيدة، وعرضَ المبحثُ الثالثَ أفكارها . ثم جاءت النتائج التي تراءت لنا من خلال تحليلنا القصيدة، فأوجزنا ما توصلنا إليه في المباحث التي مرّت قبلُ، فثبت بمراجع البحث ومصادره .

تمهيد

قد يختلف الدارسون في الجواهري إنسانًا، أو شاعرًا، في هذا الموقف أو ذاك، ولكنهم يُجمعون أنهُ قضيةٌ كُبرى، **وأنّ** شعرهُ قضية الشعر الكبرى، وأنهُ بحرٌ زاخر من العطاء الفكري الثّر الذي سيبقى خالدًا .

لقد ترددت قصائدهُ على الألسن، وتناولتها الأقلام، لأنه اختط لنفسهِ طريقًا جاعلاً فيه الإنسان قضيته .يقول ماجد السامرائي : (وإذا كانت حرية الفكر من أخصّ ما يشغل الجواهري الشاعر من قضايا ؛ فذلك لأنه كان قد جعل الإنسان فيه أساسًا في مواجهة واقعه، ومن خلال قضية حرية الفكر كان يكتب شعرًا، يحرر فيه المكبوت الفردي والاجتماعي، وينخرط في تاريخ عصره، واضعًا هذا التاريخ موضع مواجهة، وتساؤل مستمرين) [٢] .

وقد وُهِبَ الجواهري مَلَكة الإبداع من خيال وأحاسيس وخزين ألفاظ، ما لم يتهيأ لسواه، فأَحْكَمْ ذلك بما وطّن نفسه عليه من صقلٍ وتثقيف، ليكون الألق على جبين الشعر العربي، وليكون تاريخًا، وهويّة، وليكون أعاصير، و فكرًا خلاقًا، ونورًا من دونما انطفاء :

(أبا فراتٍ، ضميرَ الشعب، أنتَ لنا تاريخُنا، الأمسُ واليومُ الرضيُّ وَغَد) [٣]

وكما قال الدكتور المرحوم إبراهيم السامرائي :

(يا واهبَ الحرفِ ما لم يمتلك مِقةً ومُطلعَ الحرفِ من أنماطِهِ سَرَقُ
أنطقته وهو عيٌّ في سواك بما دعوته فأتاك الأمرُ يتّفقُ) [٤]

يقول ميري البصري : (الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسي الديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصًّا، فتجيء كالصرح الممرّد، أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثوابًا مؤنقة من جزل الألفاظ)[٥].

وفضلا عن عطاء الجواهري الشعري فله مقدمتان نثريتان قدّم بهما لدواوينه الشعرية، **الأولى:** عنوانها (على قارعة الطريق)، صدّر بها أول ديوان له، وظلت في طبعاته اللاحقة، وكذا صدّر بها مختاراته .

وفي هذه المقدمة أفصح الجواهري ـ بأسلوبٍ مباشر، أو بالرمز ـ عما اختمر في نفسه ووجدانه، وروحه، من أفكار قرر أن يجعلها رضاب حياته، ومنهجًا لا يمكن أن يحيد عنه، مهما كلّفه ذلك من عناء ومشقة. وهذا ما كان للشاعر.

---

(٢) المجلة الثقافية –الجامعة الأردنية– عدد : ٤٢، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م / مقال : تأملات في عالَم شعري / ٩٨ .
(٣) من قصيدة للدكتور سعيد الزبيدي، ألقاها بمناسبة احتفاء جامعة الموصل بالشاعر في ١٩٨٠/٢/٢٠م .
(٤) المجلة الثقافية / ١٠٠.
(٥) أعلام الأدب العراقي الحديث ١ـ١٨٢ .

الثانية : عُنوانها (بدر)، وهي كلمة قدّمَها من إذاعة بغداد، لمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بدر شاكر السياب .

يقول ماجد السامرائي : (في الوثيقة الأولى (على قارعة الطريق) شهادة على الذات والواقع، فالشاعر يكلّم الذات، والذات ترتدّ إلى الواقع في حركةٍ مدوّمةٍ مُحمّلةٍ فيها تحديد لمسار اختيار، ونابضة بموقف يجلو صفحته دون خشية وارتياب .

وأما في الوثيقة الثانية فإن ذاتِ الشاعر تُكَلِّمُ نظيرها الشعري بلغة مفتوحة على الحياة، وشِعر الحياة)[٦].

الذي أذهب إليه في هاتين المُقدمتين النثريتين أنهما من أصدق ما صور فيه الشاعر مشاعره، لكنه كان ناثرًا لا شاعرًا، وأفصح بهما عن أفكاره بصراحة ودقة وصدق، وهما قد ترتقيان مرتبةً أعلى مما بثّه من شعور، أو آراء في قصائده

المبحث الأول

مدخل إلى عالم الشاعر،وقصيدته

أ. الشاعر:

إنّ من يلج عالم الجواهري من أيِّ جانب شاء عليه أن تكون له أوليات في علومٍ شتى، نحو : علمِ الاجتماع، وعلم الأديان، وعلمِ النفس، وعلومِ اللغة، وغيرها من العلوم ؛ لأن الشاعر لم يكن إنساناً اعتياديًّا، فقد امتلك موهبةً وإلهاماً وصبراً، ورغبةً في المواصَلَةِ، وقد صرح هو بذلك في مذكراته . فهو قد عاشِ بيئةً متناقضة في النجف، وكما هو حال العراق، بل قل في حياته كلها، يقول: (كانت سنوات حياتي تُختصر قسراً إلى شهور بل أسابيع، وقد حملت إلى حياة سنواتي اللاحقة تبعات كل تلك الفترة التي سُرِقَت مني، حملتها بكل تناقضاتها ومباذلها، وعُقَدِها، ومفارقاتها، حيث انعكست على حياتي وشعري، بل وعلى تعاملي مع الناس، ومَن معي)[٧].

ويقول عن نشأته، وعن موهبته التي فاقت المواهب، ومعرفة الآخرين بذلك : (لقد بدأتُ في مجالس النجف مستمعاً صغيراً مسحوراً بإيقاع الشعر وصوره، ثم أصبحت وأنا أتصاعد شيئاً فشيئاً ممن يشبه المثل به، والتحدث عنه في هذا المجال، وأنا ما أزال في عنفوان الصبا، فحيثما ذهبت كان أترابي، وحتى من درست عليهم يتسلّون باختبار حافظتي الشعرية، وكانوا يتلون علي أربعة أو خمسة، بل حتى سبعة أبياتٍ وعليّ أن أعيدها على الفور، فأعيدها فعلاً ولمرة واحدة، ويصل الرهان فيما بينهم بهذا الصدد حدًّا بعيداً، فقد تقدم صديق عزيز عليّ، ومن صميم مشابك العروق العائلية في الأسرة، وهو السيد(علي الجصاني)، ووضع أمام عيني ليرة رشادية ذهبية، كنت أحلم بأمثالها، وقال: إنها لك إذا حفظت كل هذه الأبيات في يوم واحد، وبين إغراء الليرة الذهبية، وإغراء التحدي أخذت حزمة الورق تلك، وفيها أكثر من أربعمئة بيت من الشعر أبيح لي فيها عشرون غلطة، البيت بكاملة غلطة، والكلمة غلطة، وعدت إلى المجلس في اليوم التالي، وبدأت أتلوها عن ظهر قلب، وأنا أرى العيون والوجوه من حولي مدهوشة، وقد كانت غلطاتي المفروضة عليّ دون ذلك، وحين انتهيت كانت الليرة الذهبية في جيبي، وهي تكاد أن تكون كفاف عيش لشهر واحد لمن أراد الكفاف، وإلى جانبها وليمة فخمة لشلة كبيرة من أترابي .. في نهاية المطاف أدرك والدي استحالة ما أراد منعي عنه .وأريد أن أشير إلى أنّ هذا الوالد المتزمت بدلاً من أن يصوغ ولده كما أراد، أخذ يتأثر به)[٨].

---

(٦) المجلة الثقافية / ١٣٠ .
(٧) ذكرياتي ٥٣/١ .
(٨) ذكرياتي ١ / ٧٠ .

http://abu.edu.iq

وعلى الرغم من الصراع النفسي الذي عاشه الشاعر في بيئة متناقضة، كان تَوّاقًا إلى التمرد متطلعا إلى التغيير، مهما كلفه ذلك من خسائر، وقد حصَلَت له كثيراً[٩]، إزاء مغريات لا تُقاوَم ـ قد لا يقوى على رفضها سواه ـ، وقد يقابلها جوع، وسجن، أو تشريد وغربة..لكنه الجواهري الذي خاض غمار ذلك كلّه منتصراً ؛ لأنه آمن بخط النور، والحرية، وحق الإنسان في العيش الكريم، يقول في علاقته بالناس : (من حقي ـ وقد كُتِب عليَّ ـ أن أكون أكثر من أي شاعر معاصر عشته وعاشني انشدادا بالجماهير العربية، ولا سيما بالطلائع الواعية منها، وأشدَّ مشاركة في مطامحهم ومعاناتهم)[١٠].

ولما كان لنشأة الشاعر الأولى أثرٌ بالغٌ في بنائه الأدبي، والنفسي ـ من الجوانب كافة ـ فقد كان من بين تلك المؤثرات فيه ابنُ الكوفة الأول(أبو الطيب المتنبي)، فكانه، وهو يقول فيه :

تحدى الموت واختزل الزمانا ... فتًى لوّى من الزمن العِنانا
فتى خبط الدُّنا والناس طُرًّا ... وآلى أن يكونهما فكانا
ويا ابن الكوفة الحمراء وشّى ... بها سمط اللآلئ والجُمانا

ويقول عن نفسه : أنا ابن كوفتك الحمراء لي طَنَبٌ ... بها وإن طاح من أركانه عَمَدُ

وأفصح الجواهري عن تعلقه بالمتنبي فقال : (وجدتني وأنا صغير السن، وكأنني أريد هذه المرة التعرف على أيّ بقعة من (حي كندة) في الكوفة كان مولد هذا العبقري)[١١].

لقد كان الجواهري متأثراً ايّما تأثُّر بالشعراء الذين سبقوه، ولاسيما العباسيون، وفي مقدمتهم المتنبي، ويظهر ذلك جليًّا في قصائده التي جارى فيها أولئك الشعراء [١٢].

ب القصيدة :

نامي جياعَ الشَّعبِ نامي ... حرستْكِ آلهةُ الطَّعامِ
نامي فإن لم تشبعي ... من يقظةٍ فمن المنامِ
نامي على زبدِ الوعود ... يُداف في عسلِ الكلام
نامي تزُركِ عرائس الأحـ ... ـلام في جُنحِ الظلام
تتنوّري قرصَ الرغيفِ ... كدورةِ البدرِ التمام!
وتَري زرائبكِ الفِساحَ ... مبلّطاتٍ بالرُّخام

❖❖❖

نامي تَصِحّي! نِعمَ نومُ ... المرءِ في الكُربِ الجسام
نامي على حمَةِ القنا ... نامي على حدِّ الحُسام
نامي إلى يومِ النشور ... ويومٍ يُؤذَنُ بالقيام
نامي على المستنقعات ... تموج باللُججِ الطوامي

(٩) ذكر الشاعر كثيراً من ذلك في مذكراته، بل إنّ كثيراً من قصائده سجلت ذلك في مناسبات شتّى .
(١٠) ذكرياتي١/١٤. ومن أبياته المعبّرة عن ألمه، وألم الناس قوله :
عرفتنا الآلام لونًا، لونا ... وأرتنا الممات ساعًا، فساعا : من قصيدة :(الدم يتكلم).
(١١) ذكرياتي١/٣٧.
(١٢) مثلا قصيدته في هاشم الوتري : مجّدتُ فيك مشاعرًا ومواهبا ... هي قريبة من قصيدة أبي الطيب :
بأبي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا

http://abu.edu.iq

زخَّـــارةً بـــشذى الأقـــاح ... يمـــدُّه نفـــحُ الخـــزام
نـــامي علـــى نغَـــمِ البعـــوض ... كأنـــه سَـــجع الحمـــام
نـــامي علـــى هـــدْي الطبيعـــ ... ـــةِ لم تُحَـــلَّ بهـــا((ميـــامي))
نـــامي فقـــد أُضـــفى((العـــ ... ـــراءُ)) عليـكِ أثـوابَ الغـرام
نـــامي علـــى حُلـــمِ الحواصـــد ... عاريـــاتٍ للحـــزام
متراقـــصاتٍ والـــسياطُ ... تُجـــدُّ عزفًـــا بـــارتزام
وتغـــازلي والنَّاعمـــاتِ ... الزاحفـــاتِ مِـــنَ الهـــوام
نـــامي علـــى مهـــدِ الأذى ... وتوسَّـــدي خـــدَّ الرُّغـــام
واستفرشـــي صـــمَّ الحَـــصا ... وتلحَّفـــي ظُلَـــلَ الغمـــام
نـــامي فقـــد أنهـــى ((مُجيـــ ... ـــعُ الـــشعبِ))أيَّـــامَ الـــصيام
نـــامي فقـــد غنَّـــى((إلـــهُ ... الحَـــربِ)) ألحـــانَ الـــسلام!

* * *

نـــامي جيـــاعَ الـــشعبِ نـــامي ... الفَجـــرُ آذَنَ بانـــصرام
والـــشمس لَـــن تؤذيـــكِ ... بعـــدُ بمـــا تـــوهَّج مـــن ضـــرام
والنورُ لن ((يُعمي!)) جفونًا ... قـــد جُـــبِلن علـــى الظـــلال
نـــامي كعهـــدكِ بـــالكَرى ... وبلُطفـــهِ مـــن عهـــدٍ حـــام
نـــامي .. غـــدٌ يـــسقيكِ مِـــن ... عـــسلٍ وخمـــرِ ألـــفِ جـــام
أجـــرِ الـــذليل، وبـــردَ أفئـــدةٍ ... إلى العلَيـــاءِ ظـــوامي
نـــامي . وسِـــيري في منامـــكِ ... مـــا اســـتطعت إلى الأمـــام
نـــامي علـــى تلـــكَ العظـــاتِ ... الغُـــرِ مِـــن ذاكَ الإمـــام
يُوصـــيكِ أن لا تطمعـــي ... مـــن مـــالِ ربِّـــكِ في حطـــام
يُوصِـــيكِ أنْ تـــدَعي المباهجَ ... واللذائـــذَ لِلَّئـــام
وتعوَّضـــي عـــن كـــلِّ ذلـــكَ ... بالـــسُجودِ وبالقيـــام
نـــامي علـى الخُطَـبِ الطِّـوال ... مِـــنَ الغطارفـــةِ العظـــام
نـــامي يُـــساقَطُ الموعـــو ... دُ فوقَـــكِ بانتظـــام
نـــامي علـــى تلـــكَ المباهجِ ... لم تَـــدَعْ ســـهمًا لرامـــي
لِمِ تُبقِ مـن ((نُقلِ!)) يسرُّكِ ... لِمِ تجتَـــه .. ومـــن أدام
بنـــتَ البيـــوتِ وفجـــرتْ ... جـــردَ الـــصحارى والمـــوامي
نـــامي تَطُـــف حُـــورُ الجنـــانِ ... عليـــكِ منهـــا بالمُـــدام
نـــامي علـــى الـــبرص المبيـــ ... ـــضِ مـــن ســـوادكِ والجُـــذام
نـــامي فكـــفُّ اللهِ تغـــسـ ... ـــلُ عنـــكِ أدرانَ الـــسقام
نـــامي فحـــرزُ المـــؤمنينَ يَـــذ ... بُّ عنـــكِ علـــى الـــدوام
نـــامي فمـــا الـــدُّنيا ســـوى ... ((جـسرٍ!)) على نكدٍ مُقام

* * *

http://abu.edu.iq

نـــــامي ولا تتجـــــادلي القـولُ مـا قالـتْ ((حَـذام))
نـامي علـى المجـدِ القـديم وفـوقَ كُـومٍ مـن عظـام
تِيهـي بأشـباهِ العـصاميّين! منـكِ علـى ((عِـصام))
الـــرافعينَ الهـــامَ مِـــن جُثـثٍ فَرشْـتِ لِهِـم وهـام
والـواحمينَ ومِـن دمائـكِ يرتـوِي شِـرهُ الوحـام
نـامي فنومُـكِ خـيرُ مـا حِمـلُ المـؤرِّخ مـن وسـام
نـامي جيـاعَ الـشعبِ نـامي بُرِّئـتِ مِـن عيـبٍ وذام
نامي فإنَّ الوِحدةَ العصماء! تطلـبُ أن تنـامي الـسلام
نـامي جِيـاعَ الـشعبِ نـامي النـومُ مِـن نِعـمِ الـسلام
تتوحَّـد الأحـزابُ فيـه ويُتَّقـى خطـرُ الـصِدام!

تهدا الجموعُ بِهِ وتستغنى الصفوفُ عن انقسام
إنَّ الحماقـةَ أنْ تَـشقَّي بـالنهوضِ عـصا الوئـام
والطـيشُ أنْ لا تلجئـي مِـن حاكِميـكِ إلى احتكـام
الـنفسُ كـالفرسِ الجَمـوحِ وعقلُـها مثـلُ اللجـام

نامي فإنَّ صلاحَ أمرٍ فاسدٍ فِي أنْ تنامي
والعروةُ الوثقى! إذا استيقظتِ تُؤذِنُ بانفصام
نـامي وإلاَّ فالـصفوفُ تئـولُ منـكِ إلى انقـسام
نـامي فنومُـكِ فتنـةٌ إيقاظُهـا شـرُّ الأثـام
هـل غـيرَ أنْ تتيقَّظـي فتعِـاودي كـرَّ الخـصام

* * *

نـامي جيـاعَ الـشعبِ نـامي لا تقطعـي رزقَ الأنـام

لا تقطعي رزقَ المُتاجِر والمُهندس، والمحامي!
نـامي تُريحِـي الحـاكمينَ مِـن اشـتباكٍ والتحـام
نـامي تـوقَّ بـكِ الـصحافةُ مِـن شـكوكٍ واتهـام
يحمِـدْ لـكِ القـانونُ صُنعَ مُطاوِعٍ سلِسِ الخُطام
خـلِّ ((الهُمامَ!)) بفـضلِ نـو مـكِ يتَّقـي شـرَّ الهُمـام

وتجنَّبي الشُبُهاتِ في وعيٍ سيوصَمُ باجتـرام

* * *

http://abu.edu.iq

نـــامي فجِـــلدُكِ لا يُطيـــقُ إذا صـــحا وقـــعَ الـــسهام
نـــامي وخلّـــي الناهـــضينِ لوحـــدِهم هـــدفُ الروامـــي
نـــامي وخلّـــي اللائمـــين فمـــا يُـــضيركِ أنْ تُلامـــي!
نـــامي فجـــدرانُ الـــسجونِ تِعـــجُّ بـــالموتِ الـــزؤام

ولأنتِ أجـوجُ بعـدَ أتعـابِ الـرُّضـوخِ إلـى جِمـام
نامي يـرحْ بمنـامكِ ((الـزُّعمـاءُ؟)) مـن داءٍ عُقـام
نـامي فحقّـكِ لـن يـضيعَ ولـستِ غُفـلاً ! كالـسَّوام
إنَّ ((الرُّعـاةَ!)) الـساهرين ســيمنعونكِ أن تـــضامي

* * *

نـــامي علـــى جَـــوْرٍ كمـــا حُمِلَ الرضيعُ على الفطام
وقَعـي علـى البلـوى كمـا وقعَ ((الحسامُ!)) على الحسام

نامي عـلى جيـشٍ من الآلامِ محتشِدٍ لهُـام
أعطـــي القيـــادة للقـــضاءِ وحكَميـــهِ في الزِمـــام

واستسلمي للحادثاتِ المُشفقاتِ على النيام
إنَّ التـيقّظَ ـ لـو علِمـتِ ـ طليعـــةُ المـــوتِ الـــزُّؤام
والـــوعيُ ســـيفٌ يُبتلـــى يـــومَ التقـــارُعِ! بـــانثلام

* * *

نـــامي شَـــذاةَ الطُهرِنـــامي يـــا دُرَّةً بـــينَ الرُّكـــام
يـــا نبتـــةَ البـــلوى ويـــا وردًا ترعـــرعَ في اهتـــضام
يـــا حـــرَّةً لم تـــدرِ مـــا معنـــى اضـــطغانٍ وانتقـــام!
يـــا شُـــعلةَ النُـــورِ الَّـــتي تُعشي العيونَ بلا اضطرام!
ســـبحانَ ربِّـــكِ صَـــورةً تزهـو علـى الـصوَرِ الوسـام
إذْ تختـــفينَ بـــلا اهتمـــامٍ أو تُـــسفرين بـــلا لثَـــام
إذْ تحملـــينَ الـــشرَّ صـــابرةً مـــن الهُـــوجِ الطَّغـــام
بوركـت مِـن ((شَـفعٍ)) فـإنْ نـزلَ الـبلاءُ فمِـنْ ((تـوام))
كـم تـصمُدين علـى العتـابِ وتـــسخرين مِـــن المـــلام!
ســـبحانَ ربِّـــكِ صـــورةً هـي والخطوبُ على انسجام

http://abu.edu.iq

نـامي جيـاعَ الـشعبِ نـامي النـــومُ أرعـــى للـــذمِّام
والنَّـــومُ أدعـــى للنـــزولِ علـــى الـــسَّكينةِ والنظـــام

* * *

نـامي فـإنّكِ فـي الـشدائدِ تخلُصينَ مِن الزّحام
نامي جيَاع الشـعبِ لا تُعنَي بسِقطٍ من كِلامي
نـــامي فمـــا كـــانَ القـــصيدُ ســـوى خُريـــزٍ في نظـــام
نـــامي فقـــدْ حُـــبَّ العمـــاءُ عـــنِ المـــساوئ والتعـــامي

نامي فبئسَ مطامعُ التواعينَ ! مِن سيـفٍ كَـهام
نـــامي : إليـــكِ تحـــيتي وعليـــكِ نائمـــةً ســـلامي
نـامي جيـاعَ الـشعبِ نـامي حرسـتْكِ آلهـةُ الطَّعـام

نظم الشاعر قصيدته سنة ١٩٥١م، وهذا يؤكد أنّ الشاعر قد نظمها بعد اكتمال مقومات النظم الشعري بكل لوازمها لديه، كما يؤكد هذا أنه قد أدرك أنّ رسالة الشاعر بناء الإنسان والحياة، وإقامة المجتمع العادل، فهو عندما نظم هذه القصيدة كان هادفاً إلى إيقاظ الشعب المظلوم للثورة ـ بوعي تام ـ من خلال تصوير معاناته، وبؤسه وحرمانه، بأسلوب ساخر لاذع، انتظم القصيدة من أوّلها إلى آخرها ـ تقريباً ـ.

ولما كان موضوع القصيدة محنة الجماهير ـ بما تحسه وتعيشه وتتطلع إليه ـ كان الشاعر جديراً بذلك الاختيار، لما قدمناه أنه كان هاجسه الأول الناس، والحرية، والتقدم والعدل، فكانت تنويمة الجياع من بين قصائد كثيرة للشاعر توافقها في الفكرة وتخالفها في الأسلوب، توكّد توق الشاعر إلى الحياة التي تحياها الشعوب الكريمة، وأرى أن من كان هذا منهجه ـ فضلاً عن امتلاكه مقومات الإبداع الشعري ـ يكون الخلود نصيبه، وهذا ما كان لأبي فرات بلا خلاف، ولا منازع، وقد امتلأت الساحة الأدبية بمئات الشعراء، ومثلهم النقاد، ومثلهم الحساد، بل قل المناوئون، لكنّ الجواهري حلّق بإنسانيته، وبعطائه، وبفكره المبدع الخلاق ليكون المتنبي الثاني.

لا أريد تفصيل القول فيما يتعلق بالقصيدة ؛ لأنها ستكون محور البحث ـ بعون الله وتوفيقه ـ ولكنّي وجدت أنّ من نافلة القول أنْ أبيّن أن أفكار القصيدة كانت ـ وما زالت، وستبقى ـ ناطقة بصدقٍ، وبموضوعية عمّا يعانيه الفقراء من جور الطغاة، وهذا هو الأدب الحيُّ الخالد.

المبحث الثاني: أسلوب القصيدة

يُعدُّ الأسلوب الأدبي ـ ولاسيما في الشعر ـ من أهم العناصر التي تُساهم في إيصال الأفكار، وهو كذلك الثوب الذي يُظهر الإبداع الأدبي، وبه تبين جماليته، فضلاً عن قيمة الأفكار التي يُقدمها الأسلوب، وبقية مقومات النصِ الأدبي، وقد وجدنا في تحليلنا لأسلوب قصيدة (تنويمة الجياع) الآتي :

١. اتخذ الشاعر السخرية أسلوباً، فقدم أفكاره بهذا الأسلوب الذي انتظم القصيدة كلها ـ تقريباً ـ.
٢. لم يُفصح الشاعر عن مشاعره الخاصّة، وأحاسيسه صراحة، أي : لم يُعلن مباشرة موقفه مما طرحه، فأنت لا تجد أيَّ ضميرٍ للمتكلم الظاهر، و لا المستتر ـ بالإسناد ـ، بل إنّ ذلك بيّنٌ مما قدّمه من أفكار عن الجياع وبؤسهم، وما يُكال لهم من وعود كاذبة، فهو تكلم باسمهم، مصوراً دقائق حالهم، وكأن ذاته منصهرة فيمن تحدّث عنهم بمرارة، وحرارةٍ غير مباشرة، ولو لم يكن الشاعر قد أحسّ ما

http://abu.edu.iq

كان يُكابده الجياع، وأنّه عاش مِحَنَهم، لما تأتت إليه هذه الصورُ المجسِّدةُ بصدق تلك المعاناة، وذاك الابتلاء .

٣. لقد جاءت أبيات الشاعر مناسبة سهلةً في نطقها، عفوية في طرح أفكارها، وقد انتظمت السلاسةُ تسلسلها، وكأن الشاعر قد دخل قلوب الناس، وتغلغلَ في أعماق نفوسهم، وهو لم يُعمل فكرَه في البحث عن مفرداته، ولا مضامينه، بل جاءته طيعة، تعبر عمّا يريد، وهذا لعمري الأدب الذي يُقال فيه (السهل الممتنع) .

وأحسب أن موضوع القصيدة، وأصحابها وراء هذه العفوية والسهولة، واليسر في الطرح والأسلوب .

٤. ولما كان الجياعُ ـ وهم جلُّ الشعبِ ـ قضيّةَ الشاعر الكبرى، فقد اتخذ أسلوب الخطاب المباشر، فهو استعمل صيغة الأمر (نامي) مُوَجّهًا لهؤلاء المحرومين، مع أسلوب النداء، وإن حُذِف حرف النداء في (جياع الشعب)، فالمعنى بتقدير : يا جياع الشعب .

وهذا الأسلوب ينمّ عن تحفيز لذات المتلقي في أن يتنبّه لما هو فيه، ولما يجري حوله، ولما عليه فعله .

٥- استخدم الشاعر المشاكلة اللفظية والمعنوية، وعلى وفق أسلوب السخرية، فهو مثلاً ينوّع الشبع، إذ يجعله شبعًا من النوم، لا من الطعام، ومن الوعود لا من الحرية .. والنوم على المباهج، وما في ذلك من طلب الإخلاد للدعة، والسكينة، ولكنها مباهج الكذب التي كانت سهامًا قاتلة من الطغاة :

نامي على تلك المباهـج لم تدع سهمًا لِرامـي

أو دعوته للنوم لأجل التطلع الى الغد المشرق، لكنّ الغد الموعود الذي لا يُرجى مجيؤه، بل هو منصرم :

نامي جياعَ الشعب نامي الفجرُ آذنَ بانصرام
نامي على مـهد الأذى وتوسّدي خـدَّ الرُّغام

٦ ـ استخدم الشاعر المعاني الإسلامية، والألفاظ القرآنية، وهذا يدل على تأثر الشاعر بجو مدينته الديني، فرصّع قصيدته بما كان قد اختزنه في حافظته، ووشّاها مما اقتبسه من القرآن الكريم، نحو قوله : نامي يساقَطُ رزقك الموعو دُ فوقَكِ بانتظـام[١٣]

وقوله : نامي تَطُف حور الجنان عليكِ منها بالمُدام[١٤]

وقوله : نامي إلى يوم النشور ويوم يؤذن بالقيام[١٥]

وقوله : وتعوضي عن كل ذلك بالسجود وبالقيام[١٦]

٧ ـ نوّع الجواهري في الأساليب التي استخدمها في إيصال أفكاره، فناسب بذلك التنوّع تنوّعَ الأفكار، وقد حلّق في ذلك التنويع، ونمّ ذلك عن دراية واسعة باللغة، وامتلاكه ناصيتها، من حيث إنّ لغتنا

---

(١٣) قال تعالى : (وهُزِّي إليك بجذع النخلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا) [مريم : ٢٥] . ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٣٥٦، مادة (سقط) .

(١٤). جمع الشاعر بين فكرة طواف الولدان المُخَلَّدين، وصفة الحور العين، مُستفيدًا مما ورد من ذلك في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى : (وحُورٌ عِينٌ) [الواقعة : ٢٢]، ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٢٢٧، مادة (حور)، وقوله تعالى : (ويطوفُ عليهم غِلمانٌ لهم) [الطور : ٢٤]، ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٤٣٣ ـ ٤٣٤، مادة (طوف)، وآيات أُخَر كثيرة.

(١٥). وظّف الشاعر فكرة الصبر حتى يوم الحساب لنيل الجزاء على ما يُبتلى به الإنسان، نحو قوله تعالى : (وإليه النُّشور) [الملك : ١٥] . وقوله تعالى : (فيُوفِّيهم أجورهم) [آل عمران : ٥٧] .ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٧٠٦، مادة (نشر) .وصـ ٧٦٠، مادة (وفى) .

(١٦) والسجود والقيام مفهوم إسلاميّ يُشير إلى الصلاة، وقد ورد من مادة (سجد) و(قوم) في القرآن الكريم صيغ مختلفة كثيرة نحو قوله تعالى : (وطَهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركّعِ السّجودِ) [الحج : ٢٦]، ينظر : المعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٣٤٩، مادة : سجد .وصـ ٥٨٢، وما بعدها في مادة : قوم .

http://abu.edu.iq

ثريةٌ بالألفاظ المُعبّرة عن المعنى المُراد بدقةٍ، وغنيّةٌ بالتراكيب الموحية بالدلالات الكثيرة التي يمكن للتعبير احتواؤها، فضلا عما للشاعر من باع طويل وغزير في البلاغة وفنونها، فاستخدم أسلوب الطلب كثيراً، ونوّع في جوابه، ففي مطلع القصيدة طلب من الجياع النوم، وقدّم مسوغاً لذلك بجملة فعليّة مفيدة الدعاء، وفي أعلى تركيب بلاغي معبر، يقول : نامي جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعامِ

وقوله : نامي فقد أضفى ((العـ ـراءُ)) عليك أثوابَ الغرامِ

وقوله : نامي فقد أنهى ((مُجيـ ـعُ الشعبِ)) أيّام الصيامِ

ومعلوم أن الفعل يفيد دلالة تجدد الحدث [١٧]، وقد أفاد اختيار الأفعال هذه الدلالة .

وأخبر بالجملة الاسمية تعليلاً لطلب النوم، نحو قوله :

نامي جياع الشعب نامي الفجر آذَنَ بانصرامِ

والشمس لن تُؤذيكِ بعدُ بما توهّجَ من ضرامِ

والنور لن ((يُعمي!)) جفونا قد جُبِلن على الظلامِ

والذي ذهب إليه العلماء أنّ استعمال الاسم يُفيد الثبوت والدوام [١٨] . وهذا يُمكن تبيّنه في أسلوب الشاعر في الأبيات التي مرّت، وغيرها .

أو التعليل بجملة الشرط، نحو قوله :

نامي فإن لم تشبعي من يقظةٍ فمن المنامِ

أو تعليل الطلب بجوابه، وبجملة المدح بعده، نحو قوله :

نامي تصِحّي ! نِعمَ نومُ المرءِ في الكُربِ الجِسامِ

وكأنه قصد بهذا اقناع الجياع بالنوم، بحسب رأي أعدائهم، بأسلوب ساخر، لا على وجه الحقيقة.

٨- اقتراب لغة الشاعر من المتداول اليومي، - اللغة اليومية - ، ولكنها لغة فصيحة، وقد يُطلِق عليه بعضهم لغة الجرائد، فإنه استعان بالألفاظ المتباينة من حيث ترتيبها في منزلتها من حيث كثرة الاستعمال (حتى تقرب من العامية)، وبين الألفاظ العالية في الاستعمال اللغوي الأسلوبي .

يقول أحد الباحثين (إنّ اللغة لدى الجواهري هي اللغة بتاريخها الطويل، وبتراثها كله، وهي أداته الجديرة بالاصطباغ بدماء العصور كلها، فاللفظة عنده لا تنتمي لعصر دون آخر، بل هي اللفظة التي تبقى حيّةً في خياله الخصب) [١٩] . وإن جُلّ أبيات القصيدة لهي أدل على هذه الميزة في القصيدة.

٩- تكررت الألفاظ والتراكيب والتعبيرات، مثلاً : كرر الشاعر صيغة الطلب (نامي) في (٦٦) ستةٍ وستين موضعاً من القصيدة .

وكرر تعبير (نامي جياع الشعب) بتكرار (نامي) معه ومن دونها في (٨) ثمانية مواضع .

وغير ذلك من التكرار الذي زاد من جمال الإيقاع، وتجدد الدلالة، من دونما خللٍ في الموسيقى، ولا في الإيحاء المعنوي، ولا في التأثير العاطفي، ومن دونما ملل لدى المتلقي .

١٠ – وظّف الشاعر بعضَ الأمثال، أو معنى الأمثال، أو الموروث الفكري الشعبي لإيصال فكرته، نحو قوله : نامي تصِحّي !نعمَ نومُ المرء في الكُربِ الجسامِ

وقوله : نامي ولا تتجادلي القولُ ما قالت (حَذامِ)

وقوله : والنّور لن يُعمِي جفونا قد جُبِلْنَ على الظلامِ

(١٧) ينظر : معاني الأبنية ـ د.فاضل السامرائي /٩، ومصادره .

(١٨) ينظر : معاني الأبنية /٩، ومصادره .

(١٩) لغة الشعر عند الجواهري د. علي ناصر / ١٧٨ .

http://abu.edu.iq

الشمس لن تؤذيك بعـــدُ بمَا توهّج من ضـــرامِ

١١- أحسن الشاعر في اختياره بحر الكامل ليقدم من خلاله ما اعتلج في داخله من مشاعر وأحاسيس، لما في هذا الوزن من إيقاع ناسب فكرة القصيدة، فانسابت التعبيرات توقع لحناً ساهم في التأثير في المتلقي ؛ لأن هذا البحر (كثير الإغراء، وافر الإيقاع، يستجيب بطواعيّةٍ لدواعي النفس، وألوان الفكر، شاع بنسبةٍ كبيرةٍ لدى الشُّعراء القدماء، واستخدمه كذلك شعراء العصر الحديث، ونظموا فيه قصائد شهيرة، ولا سيما في المجزوء منه، الذي استُغِلّ أحسن استغلال لأغراض مختلفة) [٢٠] .

١٢- وأحسن الشاعر كذلك في اختياره حرف الميم، المكسورة، المؤسس[٢١] لها بحرف المد (الألف)، رويًّا لقافيته، وكأنه يبغي أمرين، **الأول :** شدّ المتلقي مباشرةً إلى التنبّه، والتيقّظ، وليلهب الحماس، وهذا يمكن تلمّسه من بحر الكامل وألفاظ القصيدة ومعانيها، وقافيتها جميعا .

الثاني : الهدوء الذي قصده الشاعر في تعبيراته على وجه حق، لا على وجه الحقيقة، لكن ليناسب الأفكار الظاهرة المستفادة من ظاهر الألفاظ، والتراكيب نحو طلب النوم، وغيره، وفي هذا تناغم بين صوت الميم، والمعنى البارز من دونما بحث فيما تحت اللفظ، وليس ما أراد الشاعر من وراء تعبيراته على وجه الحقيقة، ولقد راعى الشاعر في قافيته امتداد الصوت المتأتي من مجموع حروف قافية القصيدة.

١٣- إنَّ ألفاظ القصيدة – على الرغم من اقترابها من الاستعمال اليومي للناس – لم نجد فيها لحناً، ولا غلطاً في الصيغ، ولا إسفافاً في الاستعمال، ولما كان الشعر يحسب على الشعراء القدماء (الكلاسيك)، فهو ممن عُرف بقوة السبك في العبارات، فنلحظ أنه استعمل الألفاظ الصعبة – على قلّتها – في أبيات القصيدة، نحو قوله :

نامي على مهـــدِ الأذى وتوسّدي خَدَّ الرُّغـــام

فاستعمل (الرُّغام) الذي معناه : التراب . وربما قصد به القَسر، من (رغم أنفه) [٢٢] .

وقوله : نامي ..غدٌ يسقيكِ من عَسَلٍ وخمرٍ ألفُ جامِ

فاستعمل لفظ (جام)، وقصد به هنا الإناء المستعمل للشراب والطعام [٢٣] .

وقوله : لم تُبق من (نُقلٍ) يسُرُّكِ لَم تجئه .. ومن أدام .

فلفظ (نُقل) وهي الفواكه، ولاسيما التي تُحضر مع الخمرةِ للشاربين . وقد يُراد به ما يُنقل من كلام (وعُود)، أو (أعيان) [٢٤] .

وقوله : الواحِمين ومِن دمائك يرتوي شرَهُ الوحام

فـ(الواحمين) جمع (وحِمٌ) ؛ الذي أفرطته شهوته في شيء، وقصد به هنا المولعون حدّ الشراهة في دم الشعوب[٢٥].

وقوله : ولأنتِ أحوجُ بعدَ أتعـــا بِ الرضوخ الى جِمـــامِ [٢٦]

فاستعمل كلمة (جمام)، التي تدل على الكثير، وقصد بها الراحة التامة من هدوء وسكون .

---

(٢٠)المعجم المفصل في اللغة والأدب ٣٠٢/١، ونقل عن مقدمة (الإلياذة) الآتي : (وقد أحسنوا بتسميته كاملاً ؛ لأنَّهُ يَصلُح لكلّ نوعٍ من أنواع الشعر، ولهذا كان كثيراً في كلام العرب المتقدمين والمتأخرين، وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء، وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة) .

(٢١) ينظر : المعجم المفصل في اللغة والأدب ٩٧٠/٢ .

(٢٢) ينظر : مجمل اللغة / ٢٥٦ مادة (رغم)، ولسان العرب ١٨٨/٤ ، مادة رغم .

(٢٣) ينظر : لسان العرب ٢٦٩/٢ مادة (جوم) .

(٢٤) ينظر : لسان العرب ٦٨٣/٨ ، وما بعدها مادة (نقل) .

(٢٥) ينظر : مجمل اللغة / ٢٩٣ . مادة (وحم) . ولسان العرب ٢٤٢/٩ مادة (وحم) .

(٢٦) ينظر : مجمل اللغة / ٩٣، مادة (جمّ) . ولسان العرب ٢١٠/٢ ، وما بعدها، مادة (جمّ) .

http://abu.edu.iq

وقوله : نامي يُرَح بمنامِك الزُّعمـــ اءُ من داءٍ عُقـــام
فاستعمل كلمة (عقام) قصد بذلك الداء الذي لا يبرأ منه [٢٧] .
وقوله : نامي على جيشٍ مـــن الآلام محتشدٍ لُهـــام
فمعنى (لُهام) الجيش العظيم ، كأنه يَلتهم كل شيء [٢٨] .
وربما ثمّة ألفاظ أُخر ، قد يرى فيها شيء من الصعوبة .

المبحث الثالث: أفكار القصيدة

لقد حدّد الجواهري موضوع قصيدته (تنويمة الجياع) ، ولم يذهب بعيداً عنها ، وهذا ما يُسميه علماء النقد بوحدة الموضوع في النص الأدبي ، وإنّ فكرة القصيدة تعبّر عن البلاء الذي حلّ بشعب الشاعر ، إنه ظُلم شمل جوانب حياتهم كلّها ، وللشعب كلّه ، وقد استطاع الشاعر أن يوظّف خزينه اللغوي ، وتجربته الحياتية التي تنطلق من الواقع المرّ ، وكون الشاعر إنساناً يحس بعمق ما يتجسد في حياة أهله ، وقد تلوّن عمله من موظف حكومي ، إلى صحفي – كاتباً أو رئيس تحرير - ، كل هذه وغيرها ساهمت في منح الشاعر البراعة في تقديم صور مختلفة للظلم الذي فرضه الحكام الطغاة على الناس ، فأنت تلحظ مثلا :

١ . فكرة النوم قدَّمها الشاعر بأسلوبٍ ساخر ، وبمسوّغات هي من بنات عقول الطغاة ، فهو :
أ. طلب النوم كي يشبعُ الشعبُ الجائعُ من النوم ، لا من الطعام .
طلب النوم كي يشبع الشعب من الرغيف ، لكن بالأحلام.....
جـ .طلب النوم كي يشبع الشعب لغرض تمام صحته وعافيته .
طلب النوم ولكن في وخز للظالمين الذين أهملوا مسؤوليتهم وتركوا الجياع تفترسهم الأوبئة والأمراض .. ، إذ النوم سيكون على أنغام صوت البعوض .....
هـ. طلب النوم من أجل أن تبقى الأفواه مكممة (حرية الفكر).....
طلب النوم استجابة لخطب الطغاة الكاذبة بوعودهم بالرزق ، فكأنها مواعيد عرقوب
٢ .إفادة الشاعر من الأفكار والمفاهيم التي استمدها من الموروث الشعبي ، نحو قوله :
الشمس لن تؤذيـك بعـدُ بما توهّج من ضـرام
وقوله : النور لن يعمـي جفونا قد جُبِلن على الظـلام
وقوله : نامي جِياعَ الشعبِ نامي النوم من نِعمِ الســلام
٣. قدّم الشاعر مسوغَ طَلَبِهِ من الجِياعِ النوم - وهذه الدعوةَ قد تكررت ، فعمّت القصيدة كلّها – بسخرية لاذعة ، فكانت النتائج التي آل إليها كل طلب أفكاراً مقصودا منها إيقاظ الشعب ، لأنّ المآل المترتب على النوم هو ما يدور في عقل المتسلطين ، ونفوسِهم ، وما يرغبون فيه ، وما يقتلون الجياعَ لبلوغِه ، في غاياتٍ باطلةٍ ، وأقاويل زائفة ، وواضح أنّ ذلك لا يُريده الشاعر حقيقةً ، نحو قوله :

(٢٧) ينظر : لسان العرب ٦/٣٧٧ ، وما بعدها ، مادة (عقم) .
(٢٨) ينظر : مجمل اللغة / ٥٨٦ ، مادة (لهم) . ولسان العرب ٨/١٤٤ ، وما بعدها ، مادة (لهم) .

http://abu.edu.iq

نـامي فـإنّ الوحـدةَ العـصماء تطلـــــــبُ أن تنـــــــامي
وقولـه : نـامِي فإنّ صلاحَ أمسٍ فاســــــدٍ في أن تنـــــامي
وقوله : نامي جياعُ الشعبِ نـامي لا تقطعـــــي رزقَ الأنـــــامِ
لا تقطعـــــي رزق المُتاجِـــــرِ والمُهنـــــدِس والمحـــــامي
نـــامي تُريحِـــي الحـــاكمينِ مـــن اشـــتباكٍ والتحـــامِ
نِـامي تَـوقَّ بـكِ الـصحافةُ مِـــنِ شـــكوكٍ واتهـــامِ
يحمـــدُ لـــكِ القـــانونُ صُـنْعَ مطـاوِعٍ سـلِسِ الخُطـامِ

٤ـ ودُّ الشاعر للجياع فهو لم يستطع كتمان حبّه، وإعظامه لشعبه، فراح يُفصِحُ عن جواهرِ هذا الشعب الأبي وراح يظهر معاناتهم، وأساه لذلك، وقد تخللت هذه الفكرة معظم أبيات القصيدة، ولا يخلو كل بيت من أسلوب السخرية، وقد جاء إعظام الشاعر للجياع بصورتين : **الأولى** : إظهاره بؤس الجياع وحرمانهم، وما وقع عليهم من جور وحيف وهم كانوا جديرون بتحمل ما وقع عليهم، ولحق بهم، نحو قوله :

نـــامي فـــإن لم تـــشبعي مـــن يقظـــةٍ فمـــن المنـــام
وقوله : نامي عليّ المستنقعات تمـــوج بـــاللجج الطـــوامي
وقولـه : نـامي غـداً يسقيكِ من عـسلٍ وخمـرٍ ألـفَ جـامِ
وقوله : نامي فما الدُّنيا سوى جِـسرٍ علـى نكـدٍ مُقـامِ
وقولـه : نـامي على جورٍ كما حُمِـلَ الرّضـيع علـى الفِطـامِ

والثانيـة : إعظامـه هـؤلاء الجيـاع كـونهم الـدر النقـي مـن البـشر، وأنهم مثـال الـصبر، وأنهم جـذوة النور، وأنهم الصورة العليا التي صوّرها الله في التحمّل، ومواجهة الخطوب، نحو قوله :

نامي شَذاة الطُّهر نامـي يا دُرّةً بينَ الرُّكـامِ
يا نبتةَ البلوى ويـا وردًا ترعرع في اهتضامِ

إلى أن يقول : نامي إليك تحيّتـي وعليكِ نائمة سلامـي

٣ـ النصائح أو الحِكَم المقدمة بأسلوب السخرية، وربما الاستهزاء، فقد مزج الشاعر فكرة النصيحة بما يتداوله الناس من تعبيرات قد تكون مما جرى على ألسنتهم، فصاغها بأسلوب ساخر، نحو قوله :

نـامي علـى زُبَـدِ الوعـودِ يُـداف في عَـسَلِ الكـلامِ
وقوله : نامي تصحّي ! نِعمَ نومُ المـرءِ في الكُـربَ الجـسامِ
وقولـه : والـشّمس لـن تؤذيـك بعـدُ بمـا تـوهّج مـن ضـرامِ
وقولـه : نـامي فكـفُّ الله تغـسِـ لُ عنـكِ أدران الـسّقامِ
وقولـه : نـامي فنومـكِ فِتنـةٌ إيقاظُهـا شَـرُّ الأثـامِ

وعلى الرغم من سيطرة السخرية، والتلوين بين الصور المتناقضة، نلمح حقائق مؤلمة، وحِكمًا صاغها الشاعر، نحو قولِه :

نامي فجدران السجـون تعجُّ بالمـوتِ الزؤامِ
ونحو قوله : نامي على جورٍ كما حُمِلَ الرضيعُ على الفطامِ
ونحو قوله : نامي جياع الشّعب نامي النّومُ أرعى للذّمـامِ

http://abu.edu.iq

٤ـ عمت القصيدة أحاسيس الشاعر غير المعلنة، من خلال سخريته، فأذكى النهوض في قلوب الجياع، ولكن بأسلوب هادئ غير معهود بما عُرف عنه في معظم قصائده التي كانت تطفح بمشاعر الثورة، والحث على التغيير بعنف، وأبيات القصيدة كلّها تنمُّ عن هذه الروح، ومسوّغ ذلك – فيما أحسب – هو موضوع القصيدة الذي منه : الجوع، والحرمان، والذل، والمرض، والسجن ومصادرة الحريات، ولا سيّما حرية الفكر، وجعل الأمة في حالة استكانة دائمة، بل الإحباط واليأس والقنوط في نيل أيّ حق من حقوق الحياة، والحرمان من أيسر تلك الحقوق، نحو قوله :

نـامي علـى حُمَـةِ القنـا ... نـامي علـى حـدِّ الحُسامِ
وقولـه : نـامي غـداً يسقيكِ مِن ... عسلٍ وخمرٍ ألـفَ جـامِ
أجـرَ الـذليلِ، وبـردَ أفئـدةٍ ... إلى العليّـاظـوامي
وقولـه : نـامي يُساقَطُ رزقُـكِ ... دُ فوقَـكِ بانتظـام

٥ـ فكرة حقّ الحكم الإلهي، وأنه نصيب فئة من البشر، بلا منازع، وهو يُقدمّها بأسلوب ساخر، ومن خلال هذا الطرح يريد الشاعر أن يؤكد أن هذا الرأي ممجوج مرفوض على وفق القوانين السماوية، والوضعية، نحو قوله :

أعطـي القيـادة للقـضاءِ ... وحِكّمِيـه في الزِّمـامِ
واستسلمي للحادِثـاتِ ... المُشفقاتِ علـى النيـامِ
وقوله : خلِّ الهُمامَ بفضلِ نو ... مـكِ يتّقـي شـرَّ الهُمـامِ
وتجنّبـي الـشُّبهاتِ في وعـيٍ ... سيوصَـم بـاجترامِ

٦ـ الوعود الكثيرة الكاذبة الزائفة، ومزاعم لا حقيقة لها، ومع ذلك يصورها الشاعر وكأنها مِنح من الحقوق من لدن الحكام الطغاة الظالمين للجياع، وبأسلوب السخرية نفسه، فهو يقول :

نـامي علـى الخُطَـبِ الطِـوالِ ... مِـن الغطارِفـةِ العِظـامِ

ونحو قوله :

نـامي علـى تلـك العظـات ... الغُـرِّ مـن ذاك الإمـام

يُوصيك أن لا تطعمـي ... من مال ربِّك في حطـام
يوصيك أن تدَعي المباهج ... واللذائذَ لِلئـام

ولم يدع الشاعر تلك الدعوات التي ذكرها على لسان الطغاة إلا وقدّم الجزاء على تحملهم ـ وبحسب عقول أولئك المتسلّطين ـ، مُحيلاً أمر بلواهم الى وعاض السلاطين الذين يُكِلونهم إلى الغيبيات ومايتبعها، من أجل حلّ مشكلاتهم، فيُشير الى العبادة (الصلاة) وغيرها، فقال :

وتعوّضي عن كلِّ ذلـك ... بالسّجودِ وبالقيـامِ

٧ـ فكرة التعلل بالغيب، وأن جوعهم ومآسيهم وبلاءهم سيزول بطاقات غيبيّة، ولكن بأسلوب السخرية، لأنها أفكار لا صحة لها، ولا يحكيها واقع الأمم، بل حقوق الشعوب ـ كما هو معروف ـ تؤخذ بالنضال والتضحيات لا بأحلام النيام، نحو قوله :

نامي فكف الله تغسـ ... ـل عنك أدرانَ السّقـام

http://abu.edu.iq

نـــامي فحـــرزُ المـــؤمنين يَـــذُ ... بٌ عنـــكِ علـــى الـــدّوام
وقولـه : نـامي تطُف حـور الجنـان ... عليـــك منهـــا بالمُـــدام

٨ـ فكرة ترك قيادة الأمة، وشؤونها كافة لمن امتلكوا ذلك الحق، أيًّا كانت مسوّغات هذا التسلط، ومن دونما نقاش، نحو قوله :

وقولـه : نـامي يَـرَحْ بمنامِـكِ الزَعمـا ... ءَ مـــــــن داءٍ عَقـــــــامِ

٩ـ نُصحُ الشاعر الجياعَ أن يتركوا أمرهم ويكلوه إلى من يتصدَّى للدفاعِ عنهم ونيل حقوقهم بسخريةٍ لا حقيقة، نحو قوله :

نـــامي وخَلّـــي الناهـــضين ... لِوَحْـــدِهم هـــدفَ الروامـــي
نـــامي وخَلّـــي اللائمـــينِ ... فمـــا يُـــضُرُّكِ أن تلامـــي
نـــامي فحقّـــك لـــن يُـــضيع ... ولـــستِ غُفـــلاً كالـــسوامِ

إنّ الرعاة الساهريـــن ... سيمنعونك أن تُضامِـــي

١٠ ـ مال الشاعر كثيرا إلى تقديم مُسوغٍ لطلبه، أولأخباره، فضلا عن تنويعه لتلك العلل من حيث الأسلوب، فمثلا هو علل طلب النوم بالجملة الشرطية، ولا ننسى سخريته الواضحة في ذلك: نامي، فإن لم تشبعـــي ... من يقظةٍ فمن المنـــام

أو أنّه يقدّم علةً لطلبه نُصحًا طبيًّا، أو فكرة اجتماعية، ويمدح ذلك الفعل، كي ينجوَ من يقوم بذلك من البلايا، وهو لم يُرِد الحقيقة، بل السّخرية، يقول :

نامي تَصِحّي، نَعِم نـــومٌ ... المرءِ في الكُرَبِ العظـــامِ

١١- إنّ القصيدة يمكن عدُّها من أدب التمرد، وهذا ليس جديدا لدى الشاعر، فهو يقول عن نفسه: (مع ما في نفسي ودمي، وحياتي من حبّ التمرد والعصيان) [٢٩].

وقال باحث عن تمرد الجواهري : (إنّ الجواهري أعظم شاعر متمرد عرفه التاريخ قديمًا وحديثًا، بل ومؤسس أول مدرسة في العنف الشعري في تاريخ العراق الحديث) [٣٠].

إنّ الشاعر تحدث عن ظلم الجياع، وعن بؤسهم، وحرمانهم، فهو بذلك يريد ثورتهم لدفع البلاء الذي يخيّم عليهم، بل قل إنه يريدهم أن يتمردّوا على ظالميهم.

نتائج البحث

إنّ من يلِج عالَمَ الجواهري الشعري يجدهُ عالَمًا شعريًّا واسعًا، فهو بحر، ولا أبالغ إن قلت : إن من يُبحِر فيه ومعه لَيَغرقُ في بحرِه اللُّجِّي هذا، حيث تتقاذفه أفكاره، وتحلّق فيه أحاسيسه الإنسانية العليا، وتخلُبُ لبَّه مشاعرُه التي تطفَحُ بالعواطف المنبثقة من تعبيراته الصادقةِ، المؤدية المعنى بأبلغ صور البيان، وبأعلى دقةٍ في الدلالة، ولا سيّما عندما يتحدث عن المحرومين، وهذا يوثّق علاقة الشاعر بالقيم الإنسانية، وأنه يتوهّج مشاعل إضاءة للمحرومين، يقول في مقصورته :

أَلَحتَ بِشعركَ للبائـسين ... بِداجِي الخطوبِ بريقَ المُنى

يقول ميري البصري : (وكان الشاعر مؤمنًا بجماهير الشعب، معبّرًا عن آمالها وآلامها)[٣١].

(٢٩) ذكرياتي ٣٢٣/١ .
(٣٠) التمرد الاجتماعي والفني في شعر الجواهري /٤٥ .

http://abu.edu.iq

وقصيدته (تنويمة الجياع) واحدةٌ من قصائده التي حلّق فيها الشاعر فكرًا، وأسلوبًا، وجمالاً، وهو يجسّد جوانبَ من حياة شعبه المريرة، ومما تبيّناه فيها الآتي :

١ ـ مالَ الشاعر ميلا شديداً إلى السهولة في تعبيراته، ولا نغالي إذا قلنا : إنّه تحدّث بلغةِ الجياعِ أنفسِهم، وتداول ألفاظهم، ونقل ما يدور في خلجات نفوسهم، ولكن بسخريةٍ لاذعة، وهذا أعلى درجاتِ الإبلاغ الأدبي .

٢ ـ إنّ الشاعر اختار موضوعًا إنسانيًّا ـ وإنِ كان هذا الموضوعُ قضيةَ الشاعرِ الأولى والكبرى، وما زال وَكدَ المصلحين وكأنه ماثلٌ أمامنا الساعة يُصورُ بشاعة حرمان شعبه، بصدق عجيب .وهذا لَعمري الأدبُ الحيُّ الخالد .

يقول ميري البصري : (لقد كان شعره دائمًا إنسانيَّ النزعة، فوّار العاطفة تقدّميّ الأغراض) [٣٢] .

٣ ـ حسن استفادة الشاعر مما بَنى به ثقافته، فوظّف ما استقاه من جو النجف الديني العام، وما ثقّف به مَلَكَتَه من جو عائلته، بجهده الخاص، لترصين أسلوبه، وتحصينه، وتقديم أفكاره بأبهى الأثواب، وقد ظهر ذلك جليًّا في معظم ما عبّر به من أساليب، وما قدّم من أفكار، ولا سيّما التأثر بالقرآن الكريم .

٤ ـ توزّعتِ القصيدةَ الأساليبُ المتنوّعة، ما بين الطلب والإخبار، فتجد من الطلب : الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء..أما الإخبار فجاء بالجمل الاسمية، وكذا بالجمل الفعلية، وبالجمل الشرطية وغيرِها، ومنها استخدامه لفعل المدح (نعم)، وفعل الذم(بئس) . وقد قصد الشاعر بهذا التنويعِ والتلوينِ حسنَ مناسبةِ الأسلوبِ للفكرةِ التي طرحها، فبلغ المرمى بدقةٍ ما بعدها دقة، وظهرت في ذلكَ درايته في اللغة، نمّ عن إحاطته بها، وإلمامه بخزين لغوي ضخم.

٥ ـ على الرغم من أنّ الشاعر عرض أفكاره بسخرية لاذعة، لكنه لم ينسَ هؤلاء الجياع المحرومين، فخصّهم بأبياتٍ عدّة، أعظَمَهم فيها أيما إعظام، وأجلّهم أيما إجلال .

٦ ـ حسن اختيار الشاعر لوزن القصيدة، فقد اختار البحر الكامل ؛لما فيه من هدوء، وإيقاعٍ مناسب لغرض القصيدة، وأفكارها . وكذا جاءت قافية الميم المحركة بالكسر لتُطيل انسياب الهدوء الذي يريده الشاعر لمعنى النوم ـ وإن كان ساخرًا ـ ليتناسب الصوت مع فعل النوم، وكأنّ الشاعر يهدهد صبيانًا أضناهم الجوع حقًا، وبهذا الترنيم يوصلهم إلى النوم، أو ليطول حدثه، وإن لم يُرده الشاعر حقيقةً

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١ - أعلام الأدب في العراق الحديث ـ ميري البصري ـ دار الحكمة ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م

٢- الجواهري في جامعة الموصل ـ كلمات ومختارات ـ من منشورات المركز الثقافي الاجتماعي لجامعة الموصل ـ جمعه وحققه وأشرف على طبعه عبد الرضا علي وسعيد جاسم الزبيدي ـ ٢٠ /٢ /١٩٨٠ م.

٣- ديوان الجواهري ـ محمد مهدي الجواهري ـ ط ٥ ـ لم يُذكر مكان الطبعة، ولا سنتها، غير أنّ المقدمة التي قدّم الشاعر بها ديوانه جاءت موقّعة بخطه، وفيها : بغداد ٧ شباط ١٩٦١م .

٤- ذكرياتي ـ محمد مهدي الجواهري ـ ط١ ـ دار الرافدين ـ دمشق ١٩٨٨م .

٥- لسان العرب – ابن منظور (ت٧١١هـ) –ط١ – دار الحديث- القاهرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٣١) أعلام الأدب في العراق الحديث /١٨٢ .

(٣٢) أعلام الأدب في العراق الحديث /١٨٢ .

http://abu.edu.iq

٦- لغة الشعر عند الجواهري – د. علي ناصر غالب – ط١ – بغداد – ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .
٧- مجمل اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) – راجعه ودقق أصوله : محمد طعمة – ط١- دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
٨- معاني الأبنية في العربية – د. فاضل صالح السامرائي – ط١ – ساعدت جامعة بغداد على طبعه ونشره – بغداد ١٩٨١م .
٩- المعجم المفصل في اللغة والأدب – د. ميشال عاصي، ود. أميل بديع يعقوب –ط١ – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٨٧م .
١٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ ط١ ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

الدوريات

١ ـ المجلة الثقافية ـ الجامعة الأردنية ـ (عدد ممتاز برقم ٤٢)، ربيع الثاني ـ رجب ١٤١٨هـ ـ آب ـ تشرين الثاني ١٩٩٧م .

الأطاريح والرسائل الجامعية

١ـ التمرد الاجتماعي والفني في شعر الجواهري ـ جلال عبد الله خلف (اطروحة دكتوراه) كلية الآداب بغداد .

http://abu.edu.iq